الوحدة العربية

فى القرن التاسع عشر (١)

للأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم

للعرب — كما للأمم القوية — صفات خاصة، ومميزات بارزة ، جعلت لهم طابعا خاصا وشخصية خاصة بها يمتازون من غيرهم .

وترجع أسباب ذلك إلى أمور من بينها :

اعتزازهم بقوميتهم، وبكل مقوماتها اعتزازا قويا . فهم يعتزون بجنسيتهم العربية ، ويفخرون بها ، وهم يعتزون بلغتهم العربية ، ويتعصبون لها ، وهم يعتزون بوطنهم العربى ، ويحبونه .

وكذلك حرصهم على تراثهم القديم الذى ورثوه عن آبائهم السالفين : من تقاليد ، وعادات وآثار أدبية ، وعلمية ، وفنية . فهم محافظون عليه كل المحافظة ومهما يحدث فى هذا التراث من تجديد أو تعديل أو زيادة أو نقص — فان جوهره باق لا يتغير أبدا : كالسبيكة من الذهب النضار ، تصاغ حليا ، ثم تعاد سبيكة مرة أخرى فلا يزيدها ذلك إلا بريقا وصفاء .

إن هذا كله كان ومازال مصدر حياة العرب ، والرابطة الوثيقة التى تجمع بين قلوب العرب . سواء من سكن منهم الشام ، ومن أقام بالعراق ، ومن دخل مصر مقيما على ضفاف النيل وفى واديه ، ومن توطن فى افريقية بالسودان وعلى شاطىء البحر الابيض ، ومن هاجر منهم الى أمريكا أو غيرها من بقاع الارض ، ومن وطن الجزيرة العربية الفيحاء .

---

(١) محاضرة ألقيت فى نادى دار العلوم يوم الاربعاء ٤ من يولية سنة ١٩٤٥

كان هؤلاء العرب متآلفين متآزرين لا تهولهم بوارق السيوف ، ولا تفزعهم لوامع الحتوف . عدوهم مقهور ، وطائيهم مأسور ، حتى لحقتهم فتنة عمياء أوقد نارها المستعمرون ، وأضرم أوارها الاجانب المغتصبون .

روع العرب فى القرن التاسع عشر أن وجدوا الشرق طعمة للغرب ، وأن وجدوا بلادهم العربية نهبا مقسما فى أيدى الآفاكين المستبدين ، فاحتشدت فى نفوسهم آلام قاسية ، وذكريات ثاوية ، واحساسات مبرحة ، دفعتهم بقوة وحرارة الى تلمس الوسائل للتخلص من هذه الجراح ، ولإعادة حياتهم القديمة .

هبوا من نومهم أفرادا وجماعات ، وقد اشتد بهم الظمأ الى الحرية التى حرموها والى الحياة التى يجب أن يحيوها . وظهر من بينهم رجال العلم والادب ، وأبطال السياسة والاجتماع ، يوجهون العرب الى الغايات البعيدة السعيدة وينادون بجمع كلمتهم وتوحيد جهودهم . فظهرت فى كل أقليم نهضات قومية ، وثقافية ، وسياسية ، واجتماعية : شعارها العروبة ، ولحمتها وسداها : التعصب للعرب والعربية .

فالسوريون واللبنانيون والمصريون والحجازيون وغيرهم قد ارتبطت بلادهم بمواثيق العروبة . فأخذوا يتعاونون بحكم القرابة ، والجوار ، والجنس ، واللغة ، والوحدة فى الغايات ، والمشاركة فى الوجدانات . وكان هدفهم هدفا واحدا يرنون اليه بأبصارهم ، ويعقدون عليه خناصرهم ويجمعون من أجله قواهم ، ألا وهو : إبعاد الأجانب ، والتخلص من نير استعبادهم ، ليرفرف على البلاد جميعا علم السلام والحرية ، وعلم العرب والعروبة .

فكان التعاون يوفود الشعراء والكتاب والخطباء والمصلحين ، وبالجمعيات الكثيرة السرية وغير السرية . واستفرغوا فى سبيل غايتهم ، الوسع والطاقة ونالهم ما نالهم من نفى وعذاب فما وهنوا وما استكانوا .

والوحدة العربية الآن ليست بدعة مستحدثة فى هذا العصر ، بل هى وليدة لتطورات اجتماعية ، وتيارات سياسية ، وأخرى وطنية ، وهى ثمرة لجهاد طويل قامت به أمم العرب . وعلى الاخص منذ عصر محمد على باشا ، بعدأن فقدت وحدتها

قرونا ، وتبددت كلمتها أزمانا ، وأحست إحساسا عميقا بألم الوحشة والعزلة ،وألم التفرق والتحزب ، وشعرت بالحاجة اللاحة الى التضافر والتناصر . عندئذ فقط وجهت جهودها إلى الانضمام ، لتجتمع صفوفها متراصة بتماسكة كالبنيان . فقامت سوريا ولبنان ومصر والعراق ، وتونس والجزائر وطرابلس بمشروعات لها خطرها فى التعاون الثقافى والسياسى والاقتصادى على أيدى رجال العلم والأدب منذ بداية القرن التاسع عشر .

ورجال العلم والأدب فى كل عصر هم الشعراء ، وهم الرسل للنهضات القومية وهم الألسنة الناطقة بحياة أممهم وميولها ، واتجاهاتها . وهم الاطباء إن عز الدواء .

وكانت سوريا أسبق الأقطار الشقيقة الى ميدان الوحدة ، فهدت لها بالنزول أولا فى ميدان النضال العلمى والأدبى ثم السياسى والاقتصادى . للخروج من فترة الخمود والهمود،لانها رأت أن الوحدة العربية لا يمكن أن تتحقق دفعة واحدة انما تتحقق تدريجا وعلى مر الزمن : شأن كل المشروعات العظيمة تبدأ صغيرة ثم تنمو اذا توافرت لها عوامل النمو والبقاء بمرور السنين الطوال . أو تموت اذا لم تقدر لها إلا عوامل الذبول والفناء .وكيف مهدت سوريا السبيل الى هذه الوحدة ؟ سارعت الى الاخذ من أمم الغرب ما وجدته موافقا لرقيها فى الادب والعلم والثقافة . ووضعت بذور التعاون المعنوى والحسى . فتآزرت مع مصر ولبنان والعراق فى سبيل هذه النهضة .

وكانت مصر أسبق الأقطار الشقيقة فى الاستقلال الادارى والحرية الذاتية . فى عهد المغفور له محمد على باشا الكبير . فتوجهت اليها الأنظار وودكل قطر عربى لو ينال استقلاله الذاتى كما نالته مصر . وبدأت الروح الديمقراطية تنتشر فى الأقطار العربية ، فاستعان محمد على باشا بالكتاب السوريين ،ليشتغلوا فى الدواوين المصرية ولينهضوا بها من أمثال المعلم غالى ، وحنا الطويل ، ورزق الله الصباغ .

كما استعان بالمترجمين من سوريا ولبنان ومن أشهرهم أحمد فارس الشدياق . وهو لبنانى الأصل . انتقل الى بيروت سنة ١٨٠٩ ودرس مبادىء العلوم اللسانية . ثم قصد القطر المصرى وجعل يكتب فى الوقائع المصرية الى سنة ١٨٣٤ ثم جال فى أنحاء أوربا . فكان سفيرا للعرب فى فرنسا وانجلترا ، ثم توجه الى تونس . وحرر

فيها جريدة « الرائد التونسى » ثم سافر الى الاستانة وأظهر جريدة الجوائب سنة ١٨٦٠ وظلت نحو ثلاث وعشرين سنة . ثم أبطلت . إلى أن توفى فى سنة ١٨٨٧

إزالة الفوارق

ولما كانت هناك فوارق جغرافية وسياسية وطبيعية ودينية بين الأقطار العربية الشقيقة ، وكان من شأن هذه الفواصل أن تقف عقبة فى سبيل الوحدة ، وأن تعوق سيرها ، أو تبعد الهدف عن مرمى الأبصار ـ رأى أدباء الشام ومصر أن من واجبهم أن يعملوا هم أنفسهم على إزالة هذه الفوارق بقدر ما يستطيعون ، بإيجاد الصلات وتعزيز الروابط ، وتحديد الأهداف . وعملوا على ما فيه مصلحة الأقطار العربية

فماذا عملوا ؟ وضعوا أسس الصداقة والتحالف ، ودساتير المحبة والتآلف .

وقام شعراء مصر يتمدحون بسوريا ولبنان ، ويشيدون بذكر العرب وفضلهم .

وقام شعراء الشام يشيدون بمجد العرب ، ويثيرون فى نفوسهم النعرة العربية والقومية العربية ، ليستعيدوا حياتهم القوية .

فكان فى مصر من هؤلاء الشعراء ابراهيم بك مرزوق المصرى الذى ولد بمصر سنة ١٨١٧ وتوفى بالخرطوم فى بداية عصر إسماعيل . وله ديوان اسمه « الدر البهى المنسوق بديوان الأديب ابراهيم بك مرزوق »

ومن بينهم الشيخ محمد عاقل المصرى وهو الذى قال مدحا فى بيروت وأدبائها لإيجاد التعارف بين القطرين :

قال :

لقد قصدوا بيروت دار أعزة ... لهم تنتمى الآلاء فى اللفظ والمعنى

نزيلهم قد شك فى أصل داره ... وصار يقين الأمر فى عله ظنا

مدينة ظرف مابها غير فاضل ... بسيم وسيم قد حوى الحسن والحسنى

تشد له الألباب كل مطية ... بحربة الإسعاف فى كل ما عنا

وما منهم إلا وقد شب طوقه ... بنادى « نصيف اليازجى » وقد أفنى

بجيد المعانى وهو للقول حجة لأهل النهى — كم قد أجاد لنا فنا

° ° °

ومن شعراء الشام الذين عملوا على خدمة القضية العربية الشيخ ابراهيم اليازجى وقد ولد فى بيروت سنة ١٨٤٧ وانتقل إلى مصر ، وأبرز فيها مجلة البيان . وأهاب بالعرب بأن يتعاونوا وأن يحرصوا على عروبتهم :

قال فى سنة ١٨٦٨ :

سلام أيها العرب الكرام وجاد ربوع قطركم الغمام
لقد ذكر الزمان لكم عهودا مضت قدما فلم يضع الذمام

إلى أن قال :

وما العرب الكرام سوى نصال لها فى أجفن العليا مقام
لعمرك نحن مصدر كل فضل ومن آثارنا أخذ الانام
ونحن أولو المآثر من قديم وإن جحدت مآثرنا اللئام
فقد علم العراق لنا قديما أيادى ليس تنكرها الشآم
وفى أرض الحجاز لنا فيوض يسيل لها إلى اليمن انسجام
وفوق الأندلوس لنا بنود لهامات النجوم بها اعتمام
وسل فى الغرب عن آثار فخر لها فى جبهة الزمن ارتسام
ولسنا القائمين بذكر هذا وليس لنا بمعروته اعتصام
ولكنا سنجهد فى المعالى إلى أن يستقيم لنا قوام

ففى هذه القصيدة اعتزاز بالقومية العربية ، وبالتراث العربى القديم ، واستحثاث للعرب أن ينهضوا متعاونين .

° ° °

وأراد أدباء الشام أن يتخذوا خطوة أخرى فى تقريب الأقطار الشقيقة من الناحية السياسية فمدحوا ولاة مصر . وتوددوا اليهم ، وتقربوا منهم ، فنالوا حظوة لديهم .

ومن هؤلاء : جرجس اسحاق طراد من أسرة وجيهة فى بيروت ولد سنة ١٨٥٤ وتوفى سنة ١٨٧٧. قال يمدح مصر والخديو اسماعيل باشا :

على اسماعيل سيدنا سلام تردده الأكابر والصغار
إذا ماغاب غاب العز معه كما إن عاد عاد لنا الفخار
لعزته تخر الأسد طوعا كاللوت - واللوت اضطرار
فما الإسكندرية فى حماه سوى روض يجلله اخضرار
ومصر الآن فى الأقطار خود تميس بحلة لاتستعار

* * *

ولا يفوتنى أن أنوه بفضل الكاتب الشاعر ، اسكندر أبكاريوس ، فى توثيق الروابط بين مصر وسوريا . فقد اشتغل بالتأليف فى بيروت ثم دخل مصر، ومدح أولى الأمر فيها . ثم توفى فى بيروت سنة ١٨٨٥ وله ترجمة ابراهيم باشا دعاها ، المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية وهى مسجعة .

ومن شعره قوله يهنىء الخديو سعيد باشا لما زار بيروت سنة ١٨٥٩

شرفتنا . فتزينت أقطارنا وزهت معالمها وطاب المورد
وتنورت بيروت حتى أصبحت من نور مجدك كوكبا يتوقد

* * *

وقال يمدح إبراهيم باشا ويذكر ماله من فضل وبسالة :

همام كان فى الدنيا فريداً وركنا فى المهمات العظام
ولا زالت وقائعه المواضى تخلده على طول الدوام
وقائع لو رآها الطفل يوما لشاب لهولها قبل الفطام

* * *

وقال فى محمد توفيق باشا إذ كان ولى العهد :

يا من به آمالنا تتعلق ونفوسنا لله انه تتشوق

فيك الفضائل واللطائف والتقى والمكرمات وكل حسن يرمق
لم تجتمع فيك المحاسن إنما منك المحاسن كلها تتفرق
تاهت بكم مصر السعيدة عزة وغدا جبين العصر فيكم يشرق
لازلت للقصاد أحسن كعبة وطريق رزق بابه لا يغلق

° ° °

ومن شعراء الشام الذين عملوا على توثيق الروابط بين الأقطار العربية إلياس صالح وقد ولد فى اللاذقية سنة ١٨٣٩ ثم سافر الى مصر وقد مدح الخديو إسماعيل سنة ١٨٧٥ بقصيدة نقتبس منها الأبيات الآتية :

البشر فى قطر مصر فاح عاطره والمجد قد نورت فيه أزاهره
رب المكارم إسماعيل من شرفت به المعالى وزانتها مفاخره
هموم كل كئيب فهو فارجها وكسر كل كسير فهو جابره
ركابه السعد بالاقبال يخدمها وجيشه الله أنى سار ناصره

الوحدة الثقافية

إن الوحدة الثقافية أسبق فى التكوين من الوحدة الاقتصادية والوحدة العسكرية السياسية ، لأنها أساس تبنى عليه الارتباطات والاتصالات الاخرى ، ولأنها مقدمة طبيعية توحد بين العقول والآراء والاتجاهات والقلوب توحيدا يكون من أثره التآلف والتحالف فى النواحى السياسية والاقتصادية .

وقد كان للثقافة أنصار عملوا على نشرها بالوسائل المختلفة . ومن بينهم الفيلسوف الخطيب جمال الدين الافغانى زعيم النهضة والحرية ، وغارس بزور الوحدة الاسلامية والوحدة العربية معا .

فقد كان الشرق العربى رازحا تحت نير الجمود الفكرى ، والتأخر العلمى ، والاستعباد السياسى ، فجاءت رسالة جمال الدين مبعث يقظة الشرق وأساس حياته . فقد بث فى الأمم الشرقية روحا حية حفزت إرادتها ، وحركت همتها نحو الأهداف

الثقافية والعمرانية والسياسية فى عهد اشتد فيه بلاء الاستعمار ، وظلام التفرق .

جاهد فى سبيل الانسانية متنقلا بين أقطار المشرق وأقطار المغرب منذ سنة ١٨٥٦م الى أن توفى سنة ١٨٩٧ فانتقل فى هذه الفترة الى الهند والحجاز ومصر والاستانة ولندن وباريس وطهران ، لايخاف للمستعمرين بطشا ، ولايرهب للأوروبيين سلطانا .

انتظم فى سلك الجمعية الماسونية لاقامة دعائم الديموقراطية ، وحرك الرأى العام فى الشرق لفهم حقوقه المشروعة ، حتى يقف الشرقيون كافة متحدين جبهة واحدة فى وجه الأجنبى .

وقد استعان فى تكوين وحدة الشرق بالرابطة الدينية أيضا لأن الجامعة الدينية تربط الايرانيين والافغانيين مع سائر الأمم العربية ، وبالجملة قد عمل ـ رحمه الله ـ على الاتحاد الشرقى فى البلاد العربية وغير العربية .

وإذا لم يكن قد تم له تحقيق ماأراد فى أيام حياته فذلك لأن الأجانب كانوا يستغلون نفوذهم فى أطراف البلاد وأحشائها ، ليعرقلوا سير وحدتها ، ويقيموا أنواع العقبات فى وجه نهضتها . ومهما يكن من شىء فقد اتصل بالعقول والقلوب وترك من بعده خلفا يسير على هداه فى سبيل الوحدة الاسلامية والوحدة العربية معا .

عناصر ووسائل الوحدة الثقافية

كانت الصحافة العربية وسيلة لنشر الثقافة وضم الصفوف ، وتقارب وجهات النظر بين الأقطار العربية بعد انتشار الطباعة ، فقد وفد الى مصر فى القرن التاسع عشر جماعة من أدباء سوريا أنشئوا هنا فى بلادنا طائفة من الصحف العربية ، واتخذوها أداة للتعبير عن الحياة فى أقطار العرب كافة ، والتنويه بالنواحى السياسية بقدر ما سمحت به حرية الرأى فى ذلك الحين . فكانت الصحف التى أسسها السوريون من أكبر عوامل النهضة العربية ، والثقافية العامة للأقطار الشرقية

وقد اتفقت كلمة العرب على مناهضة الامتيازات الأجنبية منذ عصر اسماعيل باشا وعلى تدخل الأجانب الدخلاء فى شؤونهم ، لتسلم لهم بلادهم ، وليكونوا

سادة فى أقطارهم . فكان الأدباء فى مختلف الأقطار يعالجون هذه الناحية فى الصحف والمجلات بقوة وصرامة غير ناظرين إلى قطر دون قطر . وإنما كانوا يتوجهون بمقالاتهم وخطبهم وكتاباتهم إلى جميع الأقطار العربية : لأن شعورهم واحد فى كره الأجانب ، وفى حب إعلاء كلمة العرب . ومن هؤلاء . أديب اسحاق (ولد سنة ١٨٥٦ فى دمشق) وكان كاتبا وشاعرا وخطيبا . وقد أقام بالديار المصرية ، وهاله أن يرى الامتيازات الأجنبية تطغى على حقوق العرب . فكتب فى هذه النواحى قاصدا تنبيه قومه بمصر والشام إلى الحقوق والواجبات ، وبيننا أضرار الامتيازات الأجنبية .

فكتب فى جريدة مصر سنة ١٨٧٨ فى شأن الافرنج وامتيازاتهم بعنوان « أمانى » يقول :

« من رآنا نذكر الافرنج تارة بالاوم ، وطورا بالظلم ، ونطلق اللسان فى بيان سوء معاملتهم لنا ، وأنهم فى بلادهم خراف ترعى الرفق وتألف العدل ، وتتفيأ ظلال الحرية والمساواة . وفى بلادنا أسود تقضم لحم الحيوان ، وتأوى إلى غاب القسوة والزهو والامتياز ، يحسب أننا ممن ينكرون فضلهم ، ويبخسونهم أشياءهم . ولا والله — لسنا من ذلك فى شىء ، فاننا نعترف لهم بالمزية والفضل ، ولا نجحد سبقهم فى مجال العلوم والفنون الخ . غير أن ذلك لا يمنعنا من مقت امتياز الافرنج عنا فى الحقوق المدنية والسياسية ، ولا يرد عنا عن التماس المساواة التى يسكنون اليها ، ويحرصون عليهـــا .

إنهم طلبوا الامتياز فى الحقوق ، والعفو عن الواجبات ، فأذعن لهم أولياء أمرنا رهبة من منا وأنهم ، ورغبة فى موالاتهم . إلى أن قال :

وقد آن — والله — للامة أن تطالب ، وللدولة أن تجيب ، بل آن للاوربيين أن يكفوا عن الطمع فى الاثرة ، ويعدلوا عن الحرص على الامتياز . فقد أبطلت الحجة التى أثبتوا بها لأنفسهم ذلك الحق . . . الخ .

واستمر المرحوم أديب اسحاق بمجهوده الجبار يكتب ، ويخطب فى ذم الافرنج

وتقبيح استعمارهم ، وإيقاظ الشرق للمطالبة بحقوقه . فما كتبه فى جريدة مصر القاهرة سنة ١٨٨٠ تحت عنوان أوربا والشرق :

« قضى على الشرق أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الامتناع . ويكون هدفا لسهام المطامع والمطالب ، تعبث به أيدى الأجانب من كل جانب .

فمنهم من يغير عليه بحجة الغيرة على الانسانية ، ومنهم من يتداخل فيه بدعوى إقامة المدنية ، ولم تر منهم من هو صادق فى دعواه ، بل كلهم تابع فى ذلك قصده وهواه ... الخ »

* * *

وكان يدعو دائما إلى وحدة العرب ، ليستطيعوا الحد من عبث الدول الاوربية وذلك إذا ماتعاونوا وتراحموا ، واتحدوا جبهة واحدة فى وجه الأجنبى الأشعى .

فمن ذلك أنه قد بعث برسالة على لسان جمعية مصر الفتاة إلى الأمير عبد القادر الجزائرى سنة ١٨٧٩ . (وكان عبد القادر أميرا بالجزائر وحارب الفرنسيين ثم هزم واضطر إلى الهجرة لبلاد الشام وظل بها يعمل على توحيد القلوب ، وإزالة أسباب الخلاف إلى أن مات هناك .)

وجاء فى هذه الرسالة مايأتى :

كتابنا أيد الله الأمير الأعز ، ونحن عصبة تذكر : ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر :

رأينا مالم بهذه الأقطار من الأضرار ، ناشئة عن تخالف القلوب ، وتنافر الأفكار حتى صار الود مداجاة والحب عدوانا . فقلنا ياقوم : لاتنافسوا ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا .

ورأينا بوادر البلاء ، وطلائع الشقاء ، تخفنا المصاب الأعظم ينقلب به الخير إلى الضير ، والمغنم الى المغرم . ويزول بهاء الامة ، ثم تغضب الأرض التى سقاها السلف الكرام بالدم ، فنهضنا نروم حفظ الباقيات الصالحات بوسائل السلم . والسلم أسلم .

ورأينا فقيرنا يتعثر بأذيال فاقته ، وعظيمنا لايأمن على راحته أو على مافى راحته . ومثل ذلك سائر إخوان الوطن الذى ولدنا فيه أو نزلنا بساحته .

فنزعت أنفسنا إلى إعانتهم — ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته .

ورأينا أنوار فضل الامير توقظ الراقد ، وتنبه الغافل من هاته الأمة فتكشف عنها كل ملمة . فعلمنا أن لابد من التماس مساعدته فى هذه المهمة ، فرفعنا إليه الصحيفة التى هى لسان حالنا ، لتنوب لديه عن لسان مقالنا ، أمل الحصول على القبول : شأن الأمير فى معاملة من أمه ورجاه الخ .

° ° °

الجمعيات والمؤتمرات

فى القرن التاسع عشر

كما أن الوحدة العربية فى الوقت الحاضر تتطلب اجتماع الصفوة من رجال العرب العبقريين فى الاقطار الشقيقة ، ليتبادلوا الآراء ويمحصوها ، وليجعلوا أمرهم شورى بينهم ، وليصلوا إلى نتائج لها أثرها فى تحرير الاقطار العربية من سلطان الدول الغربية — كذلك يبين لنا التاريخ أن مثل هذا قد ظهر بقوة وحماس فى القرن التاسع عشر .

وأول من دعا إلى ذلك الخديو اسماعيل باشا ، فأنشئت فى عهده الجمعيات المختلفة . مثل الجمعية العلمية الشرقية ، وأعضاؤها مختارون من مختلف الاقطار العربية . فكانت هذه الجمعية باعثة على ظهور الجمعيات الاخرى المتعددة التى عملت لانهاض العرب ثقافيا وسياسيا .

صار فى كل قطر جمعيات تعمل من أجل النهضة القومية تمهيداً للنهضة العربية العامة . فقد عمل كل قطر عربي على تكوين نفسه تكويناقويا ذاتيا ، ثم على الانضمام إلى سائر الاقطار العربية التى ينضوى تحت لوائها العام .

وترتب على هذا : انتشار الحرية الشخصية . وتأييد حقوق الأفراد ، والنزعة

إلى التضامن والتعاون ، وعما كانت الأمم الحرة المتمدينة فى ثقافاتها ، ومناوأة الأجانب ، والوقوف فى سبيل جشعهم واستعمارهم .

وأنقل هنا جانبا من مناظرة دارت فى إحدى هذه الجمعيات وهى جمعية زهرة الآداب التى تأسست فى بيروت سنة ١٨٧٣ بترخيص من الحكومة العثمانية . ومن هذه المناظرة بل ومن عنوانها تستنبطون مقدار ما كان يشعر به العرب إزاء الاجانب المستعمرين . تناولت المناظرة « نابليون الأول » فى موضوع :

« هل كان خيره أكثر من شره ؟

فقال أحد المناظرين وهو المرحوم أديب بك إسحاق فى هذا الموضوع ما يأتى :

لقد سبق لسانى الخاطر ، وخاطرى الفكر فى الرضا بهاته المباحثة : تذكرنى بالرجل الذى مارأيت فيه كبيراً غير ذنبه ، ولاعظيما غير استبداده ، ولا مميزاً غير شره وقسوته . .

أى اجترام أعظم مما سأبسط ، وأى ارتكاب أفظع مما سأروى ، وأى افتئات أضر مما سأبين فى أعمال الآفة الحاصدة للأرواح والبلية النازلة بالابدان ، والصاعقة المنقضة على عموم الانسان . وصفت نابليون الاول . وهذا الوصف لايصل إلى معناه .

ولست فى موقف الخطيب لأمثل سيئات هذا الرجل ، ومنكرات أعماله ، ولست فى مقام المؤرخ لأجىء بتفصيل أحواله ، وبحصل أقواله . وإنما أنا مناظر فى موضوعه — التزمت أن أنفى عنه مالم يكن فيه ألبتة من الخير ، وأن أثبت له ما كان راسخا فيه من الشر ، وما التزمت إلا بيان البين ، وتحصيل الحاصل .

فقد كان ممتنعا على فطرة هذا الرجل أن يصدر منه شىء من الخير بالارادة والاختيار . فان نتج من أفعاله شىء مفيد ، فوجه النفع فيه غير مقصود . وإنما حصل عنه كما ينفع القاتل ورثة المقتول ، والكاسر معمل الزجاج ، والهادم عطل

الفعلة : لا يقصدون النفع فيما يعملون ، وإنما ينشأ ذلك عن طبيعة تلك الأعمال وقد يكون فى بعض الشر خير من بعض الوجوه .

وانى ناظر فيه من ثلاثة وجوه: الأول حالته الادارية ، الثانى حالته السياسية ، والثالث حالته الذاتية الخصوصية . مبينا ما ألحق بالناس عموما ، وبالبلاد التى ولبها خصوصا من جسيم الأضرار فى كل حالة من تلك الحالات ، معينا فى الاخيرة ما كان عليه من فساد الخلق ، وسفالة الفطرة ، وخسة النفس ، ليعلم أنه لا يعقل صدور شىء من الخير المقصود ممن تجمعت فيه تلك النقائص :

لا ترتج الاصلاح من فاسد فالشهد لا يجنى من الحنظل

* * *

الشبه بين الماضى والحاضر

إننا نعرف أن من مبادىء الوحدة العربية فى هذه الايام نشر الثقافة العربية وترجيدها وتعميمها فى الأقطار الشقيقة بقدر ما تيسر ، لتترى فى هذه الأقطار ناشئة تتقارب فى ثقافتها ، فتهدف إلى غاية واحدة وتسعى لها سعيها بآمال متقاربة .

وقد عثرنا على بذور هذه الدعوة فى أواخر القرن التاسع عشر إذ أثار بعض الأدباء موضوعات تتصل بحق التعلم ووجوبه على الآباء لولدهم من الذكور والاناث من السادسة الى الثالثة عشرة من سنهم ، بالمدارس الابتدائية والاتضافية سواء أكانت هذه المدارس أميرية عمومية أم حرة خصوصية .

وقد كان القائمون بالدعوة للتعليم الالزامى وتعميمه جماعة من أدباء سوريا وعلمائها ويقصدون أن يتحقق آمالهم فى توحيد الثقافة ونشر الحقوق وقيام كل أمة بواجبها ازاء الافراد ، وقيام الافراد بواجبهم نحو أمتهم فلم تكن دعوتهم مقصورة على مصر وحدها ، بل شملت معها البلاد العربية الأخرى الى تريد أن تنهض . وكانوا أحرص

الناس على الوحدة، لأن الشام وطنهم كانت ترزح تحت سلطان العثمانيين المستبدين. ووجدوا فى مصر مركزاً للقوة لأنها كانت مستقلة.

وقد قامت مشكلة المجانية فى التعليم عام ١٨٨١ فقام بعض الكتاب يؤيدون الرأى القائل بالمجانية المطلقة لأبناء الفقراء وأبناء الأغنياء على السواء وذلك بسبب انتشار روح الحرية، والعمل على محو الجهل والأمية.

وقام فريق آخر يقرر أن المجانية يجب أن تكون مقيدة بالعجز والفقر، لا مطلقة حتى يؤخذ المال من الأغنياء لهؤلاء العجزة الفقراء.

وقامت جريدة البشير بمصر تعارض فى أمر الالزام، وأمر المجانية وقالت: إن التعليم من وجه الالزام ظلم وكفر وفحش وجهالة، لا يحق للهيئة الحاكمة ولا يجب على الأمة، ولا فائدة فيه لأحد من الناس بل هو البلاء العميم، لأن فيه إكراهها يذهب بحرية الآباء، وينقص من عدد العارفين، ويزيد فى عدد الجهلاء.

ثم اعترضت هذه الصحيفة على مجانية التعليم. وانحصر اعتراضها فى أربعة أمور:

أولا: إن المجانية المطلقة موجبة لمزيد النفقة، فهى ضريبة فادحة تزيد تكاليف الأمة أثقالا.

ثانياً: إن المجانية بدعة مستحدثة لم تفد خيراً.. ولم يأخذ بها إلا القليل من الدول.

ثالثاً: إن المجانية من آثار الاباحية، لأنها تتعلق بالاشتراك فى أموال الدولة.

رابعاً: إن المجانية إنما وضعت فى الأصل من أجل الفقير فقط ومن أجل إعانته على التعليم. فاذا أطلقت من القيود صارت لإعانة الغنى. وفى هذا حيف على الفقير لأنه لم يأخذ حقه من الغنى.

وما أشبه الليلة بالبارحة نجد مثل هذا البحث قائما فى الزمن الحاضر، زمن الحرية والديمقراطية والانسانية. وله مؤيدون، وله معارضون.

والسبب فى طلب نشر التعليم وتعميمه أن يعرف كل مواطن حقوقه وواجباته

نحو نفسه ونحو غيره فيعمل لمصلحة وطنه واستقلاله ، والبعد عن سيطرة الأجنبي

وبالجملة فقد ظلت الروح التعاونية تنتقل من السلف إلى الخلف وتساعد على نماء الوحدة العربية . وإدخالها فى طور الفعل . وقام بعض الكتاب فى هذا العصر يجهرون بالدعوة إلى الوحدة من أمثال الأمير شكيب أرسلان فى محاضرته التى ألقاها سنة ١٩٣٧ .

كما أن بعض الشعراء من سوريا ولبنان قد تمدحوا بالأقطار العربية ، ودعوا إلى التناصر ، وساعدهم الكتاب والأدباء ومحررو الصحف والمجلات على هذا العمل الجليل ، وشد أزرهم أولو الأمر . كما كانت الحال فى القرن التاسع عشر .

وأذكر منهم على سبيل المثال شاعر العراق السيد معروف الرصافى . فقد دعا سوريا الى الوحدة العربية بقصيدة نقتبس منها الأبيات الآتية :

أما آن أن تنسى حقود وأضغان ... فيبنى على أس المؤاخاة بنيان
أما آن أن يرمى التخاذل جانباً ... فتكسب عزاً بالتناصر أوطان
علام التعادى لاختلاف ديانة ... وان التعادى فى الديانة عدوان
وما ضر لو كان التعاون ديننا ... فتعمر بلدان وتأمن قطان
إذا جمعتنا وحدة وطنية ... فماذا علينا أن تعدد أديان

وأذكر على سبيل المثال أيضا الشاعر إيليا أبو ماضى شاعر لبنان وقد وفد الى مصر أيام المرحوم شوقى ثم غادرها الى المهجر بأمريكا يقول فى الحنين الى الوطن: مصر ولبنان معاً :

وطنان أشوق ما أكون اليهما ... مصر التى أحببتها وبلادى
ومواطن الأرواح يعظم شأنها ... فى النفس فوق مواطن الأجساد
حرصى على حب الكنانة دونه ... حرص السجين على بقايا الزاد
بلد الجمال خفيه وجليه ... والفن من مستطرف وتلاد
تحنو على الغرباء حتى انهم ... لا يشعرون بفرقة وبعاد
عرضت مواكبها الشعوب فلم أجد ... الا بمصر نضارة الآباد

وبعد : أو ليست الأهداف التى ترمى إليها العرب فى غرب آسيا وشمالى أفريقية فى العصر الحاضر هى بعينها الأهداف التى رمى اليها العرب منذ بداية القرن التاسع عشر :

فظهرت الثورة ونضجت وسميت باسم الجامعة العربية فى القرن العشرين فبارك الله فيها . والسلام عليكم .

محمد أبو بكر ابراهيم

المفتش العام بوزارة المعارف